أخــــلاق القرآن

العفـــو

للدكتور عبد الوهاب عزام

العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام، ويكبر به عن الجازاة، ويتعالى عن أن يأتي الشر بالشر ويجزي السيئة بالسيئة. العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب، وتحل المودة محل العداوة، والوئام محل الخصام. ترى الرجل يؤذى في نفسه أو ماله فإذا قدر على خصمه استكبر أن ينزل إليه فيأخذه بجريرته، وآثر أن يغفر ويرحم، ووجد في هذا الإحسان من العزة والعظمة والطمأنينة ما لا يجد في الانتقام، وافاء الجناية بجزائها

وإنما العفو عند القدرة. فليس الذي يصبر على الضيم، ويخنع للقوة، ويستسلم للظالم عفوا، ولكن خائفاً ذليلاً. رحم الله أبا الطيب الذي يقول:

كل حلم أتى بغير اقتـدار   حجة لاجئٌ إليها اللئـام

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون». وقال بعض المفسرين: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لم يجدوا فيه مفسدة لأمر من أمور الدين أو الدنيا. وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفة المأمون العباسي. ورويت في العفو عند القدرة أخبار تنبئُ عما يملك قلب الرجل العظيم من الحلم والعفو في الخطوب الجسام. كما أُثِر من استعطاف المؤمنين في مقام العقاب ما يذهب بالحفيظة، ويوجب المغفرة

كانوا يرون العفو وسيلة إلى استصلاح النفوس وإزالة الأحقاد، وإحلال الوئام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام

قال خالد بن الوليد لسليمان بن عبد الملك: «إن القدرة تذهب الحفيظة، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب. فإن تعف فأهل للعفو، وإن تعاقب فبما كان منا»

وقال رجل لبعض الأمراء: «أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر مَن بُرْئي أحبُّ إليه من سقمي، وبراءتي أحب إليه من جُرمي»

وقال بعضهم: إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب للتقوى

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهدي الناس إلى هذه الخلة التي تلقى جهل الجاهل بحلم العفو، وشر المسيء بخير المحسن

سمى الله تعالى نفسه العفوّ، قال: فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوًّا غفورا؛ وفي آية أخرى: وهو الذي يقبل

التي احتلوها في الغرب لا يستقران لمن يعلم أنهم منذ أكثر من نصف قرن ولا سيما في عهد امبراطورهم الحالي يستعدون لهذه الحرب ويعدون لها العدة. بخلاف خصومهم فقد ثبت أنهم من قلة حذرهم منها وفراغهم من العدة لم يكونوا ينوونها... فإذا كان الألمان حتى الآن أقوياء أشداء فذلك طبيعي، وهم ما خاضوا غمار هذه الحرب إلا وكانوا على أتم الأهبة لها. لكن إذا كان الألمان وهم في منتهى قوتهم لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم، وخصومهم في غفلة غير مستعدين، فهل يرجى ذلك لهم بعد سنة وهم في تناقص وخصومهم في تزايد؟ هذا أمر لا يقبله العقل، ولا سيما إذا رأينا ما تؤول إليه حالهم بحصر البحار... ولهذا كله نرجع ونكرر القول أن انتصارات الألمان اليوم ليست إلا تطويلاً لأمد الحرب وأن مصيرهم في الآخر إلى الفشل التام»

صدق الدكتور وأصاب في ذلك الزمان، وكذب الأغبياء وأخطأوا في كل زمان. ولقد ذكر الأوربيون لحكامهم أمثال هذه النبوءات النافذة والنظرات الثاقبة ولم تذكر هذه النظرة للدكتور شميل بين قراء العربية الذين هم أحوج إلى التذكر والاعتبار

فإذا كان صواباً قول بعض الأدباء المازحين للدكتور: «إنك يا صاح نكبة على الناس، لأنك تخالفهم في كل ما يقولون»... فأصوب منه جواب الدكتور على تلك التحية الجافية حيث قال: «إن كنت أنا نكبة على الناس لأني أخالفهم فكم نكبة أعانيها وحدي من أولئك الناس وأنا واحد وهم ألوف؟».

عباس محمود العقاد

التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ؛ وقال أيضاً : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير ؛ وقال : إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفوًّا قديرا .

وقد أمر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ؛ ويقول : فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . ونهى أن يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال : ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفرالله لكم ؟ والله غفور رحيم

وأجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو أقرب للخير فقال : « وأن تعفوا أقرب للتقوى . » كما قال فى وصف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور . »

وقد أشاد القرآن بالعافين عن الناس ، وبين عظم جزائهم فى قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً بأمر القرآن وتأديا بآدابه . قال رسول الله : « أمرنى ربى أن أصل من قطعنى وأعفو عمن ظلمنى . »

فانظر إليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية فى سلطانه ، وصناديد قريش طوع أمره ، وقد لقى ما لقى منهم أكثر من عشرين عاماً وفى كل بقعة من مكة والمدينة ذكرى ما لقى من ظلم وعدوان وأذى ، وفى كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى أصحابه وثالوا منه ومن دينه ، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم . فما مد إليهم يوم الفتح واقتدرة يداً بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا ولا بأقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفواً عاماً شاملاً وكان أكبر أعدائه أعظمهم نصيباً من عفوه ورحمته . قال : يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وفر صفوان بن أمية أعدى أعدائه خوفاً من ذنبه ويأساً من العفو ، فأرسل وراءه النبى من يؤمنه وأعطاه عمامته أمارة الأمان . فلما طلب منه أن يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه الناس أو يهاجر قال : أنت بالخيار أربعة أشهر

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت أن تؤلب عليه القبائل وترد فتح مكة هزيمة خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين التى لقى فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة أول الأمر ثم وثب الرسول وانحاز إليه أنجاد أصحابه حتى أنزل الله سكينته ونصره . فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم ، جزاهم بالإساءة إحساناً وبالذنب عفواً . يقول الطبرى :

أتى وفد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجوانة وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله إنما أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك . فقام رجل من هوازن ... فقال : يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كنّ يكفلنك (يعنى أنهم قوم حليمة مرضعة الرسول)

أمنن علينا رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر

فقال رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؛ بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا . فقال : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فإذا أنا صليت بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم

فلما صلى بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به . فقال رسول الله : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون : « وما كان لنا فهو لرسول الله » ؛ وقالت الأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » . وقال الرسول :